قـراءة جديـــدة
فى شعر النابغة الذبيانى

دكتور فوزى محمد أمين
كلية الآداب ـــ جامعة الإسكندرية

برغم ما كتب حول النابغة الذبيانيّ من دراسات ، وما تناول شخصه وفنه من أبحاث فما زال محيّرا إلى حد بعيد ، ومازال قارىء شعره يصطدم بعديد من المعميّات ، وتثور بذهنه ألوان من التساؤل لا يهتدى إزاءها إلى جواب .

ولعل من الأسئلة التى تطرح نفسها :

١ ــ لماذا صمت شعر النابغة أو كاد عن وقعة « النّسار » مع العلم أن هذه الوقعة تمثل أعظم انتصار شاركت فيه ذبيان فى الربع الأخير من القرن السادس الميلادى ؟

٢ ــ ما لون تلك العلاقة التى كانت بين النابغة وبنى أسد حلفاء « ذبيان » ؟ ولماذا تذبذبت هذه العلاقة ــ كما يصورها شعر النابغة ــ بين التهكم الشامت وبين التشبث الحريص ؟

٣ ــ لماذا وقفت علاقة النابغة بالنعمان بن المنذر أبى قابوس أمير الحيرة عند حد الاعتذار فلم تتقدم ، ولم نسمع له قصيدة من المدح الخالص تصور ما بينهما من المودة الحميمة التى حرص الرواة على تأكيدها ؟ ثم ما حكاية المتجردة ؟ وهل ما وصفت به فى شعر النابغة أصيل له أو منحول عليه ؟

٤ ــ أكان النابغة صريح النسب إلى « ذبيان » أم أنه محمول عليهم ، وأن نسبة ينتهى إلى « عذرة » وهو ما كان يعير به أحيانا من بعض قومه ؟ وإذا كان ذبيانيا صريحا فما تلك الوشائج الوثيقة التى ربطت « بنى مرّه » رهط النابغة الأدنين ببنى عذرة وبطون أخر من قضاعة ؟

٥ ــ كيف حط الشعر من قدر النابغة على حد ما ذكر بعض من ترجموا له ؟ وهل كان الشعر يحط من أقدار الشعراء ؟ إذن فكيف نوفق بين هذا القول وبين ما نعرف من أن القبيلة ما كانت تعتز إلا بفارس ينبه فيها أو شاعر ؟

أسئلة محيرة تحتاج إلى تمحيص وتحر .

* * *

وليست الإجابة عن هذه الأسئلة سهلة ميسورة إذ إنها تتطلب أولا تصورا واضحا للعلاقات بين القبائل العربية فى منطقة نجد فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، وتتطلب ثانيا تصورا لعلاقات هذه القبائل بإمارتى المناذرة والغساسنة على حدود الجزيرة العربية فى الشرق والشمال ، وما كان لهاتين الإمارتين من فعل فى تحريك الأحداث ، وفى عقد الأحلاف بين القبائل أو نقضها ، وتتطلب ثالثا أن يكون لنا تصور واضح عن موقع النابغة بين الأحداث بما يضيء غوامض شعره ويقيم عموده .

* * *

وكنا قد انتهينا فيما كتبناه عن بشر بن أبى خازم[1] إلى أن هناك تكتلا مواليا لإمارة « الحيرة » ظهر فى منطقة نجد فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى محوره قبيلتا « ذبيان » و« أسد » وأن هذا التكتل الحيرى كان يستقطب أو يستقطب إليه قبائل أخرى فى محاولة لبسط النفوذ الحيرى على نجد ، فما لبثت قبيلتا « ضبّة » و« طيىء » أن انضمتا إلى هذا التكتل وتسمى الجميع بالأحاليف . وتصدى هؤلاء الأحاليف لبنى عامر فأوقعوا بهم فى « النّسار » ، ثم تصدوا لتميم — وقد ربطها إذ ذاك حلف ببنى عامر — فأوقعوا بها فى « الجفار » .

وقلنا — فيما قلناه — : إن انتصار الأحاليف فى هاتين الوقعتين كان انتصارا للنفوذ الحيرى فى المنطقة ، وأن الحيرة كانت تقف بكل قوتها وراء الأحاليف لتؤمن مصالحها الحيوية ، ولتحمى منافذ تجارتها بعد ما رأته من انتهازية تميم ، ونزعة بنى عامر للسيطرة على منافذ التجارة ، وطرق القوافل . وكانت وقعة « النّسار » فيما حددنا عام ٥٨٣ م ، وأعقبتها « الجفار » عام ٥٨٤ م .

* * *

(١) انظر كتابنا : شعر بشر بن أبى خازم الأسدى ، رؤية تاريخية وفنية ط منشأة المعارف . الاسكندرية ١٩٨٨ .

ولكن يبدو أن اهتمامنا ببشر بن أبى خازم وهو أسدى دفعنا إلى تعميم القول عن « ذبيان » ، وألهانا عن تفاصيل ما يجرى فيها ، وهذه التفاصيل حرية الآن بالاهتمام — فيما نظن — ونحن نتعرض للنابغة الذبيانى ، ونخطو إلى رحابه .

وأبرز ما كان يجرى فى « ذبيان » ذلك الصراع الخفى حينا ، والجلىّ أحيانا بين « بنى فزاره » وهم الرأس من ذبيان ، وبين « بنى مرة » قوم النابغة وعشيرته الأقربين ، ويبدو أنه خلاف قديم ، وأحرى بنا أن نعود إلى الوراء بعض الشىء لنتبع هذا الخلاف الذى بلغ ذروته — فيما نظن — فى وقعة « النسار » .

* * *

وقد بدأ هذا الخلاف خافتا لا يكاد يعلن عن نفسه فى حرب داحس والغبراء التى أشعل نارها حذيفة بن بدر الفزارى ، ووجدت « مرّة » نفسها مدفوعة إلى هذه الحرب دفعا ، تحارب قوما ما كانت تود أن تحاربهم ، وإذا كانت « مرّة » استجابت لنداء الحرب ، ولم تخذل حذيفة فإننا نعتقد أنها كانت غير راضية عما تفعل ، ونسمع أصداء تمرد مرىّ مكتوم على هذه الحرب فيما نقرؤه من شعر النابغة ، فانظر إليه مثلا يتأسى على فراق « عبس » ، وعلى الخسارة التى لحقت بذبيان من جراء هذا الفراق ، مهيبا بذبيان أن تتدارك الأمر قبل تفاقمه ، وقبل أن تفقد عبسا إلى الأبد :

أبلغْ بنى ذبيانَ إمّا أتاهم ... بعبسٍ إذا حلّوا الدّماخَ فأظلما
بجمعٍ كلون الأعْبلِ الجُونِ لونهُ ... ترى فى نواحيه زهيراً وحِذْيَما
هُمُ يردُون الموتَ عند لقائه ... إذا كان وِردُ الموتِ لابد أكرما[1]

وهذا كلام عجب لا كلام قائل ساخط ، ولعلك لحظت إعجاب النابغة بقوة بنى عبس ، وضخامة جيشهم ، وإقدام فرسانهم الذين لا يترددون فى لقاء الموت ، إن هذا الوصف المفصل لقوة بنى عبس لفت من النابغة إلى عظم الفقد ، وضخامة الخسارة .

(١) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف ص ١٠٤ .

ولا نكاد نقع فى ديوان النابغة على قول موجع فى عبس سوى هذه الأبيات التى يعيرهم فيها اغترابهم فى بنى عامر :

جزى الله عبسا فى المواطن كلها ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعلْ
فأصبحتمُ والله يفعَلُ ذلكم ... بعُزْكم مولى مواليكم خجلْ
وأصبحتمُ والله يفعلُ ذلكم ... نساءَ المرضعاتِ بنو شكلْ
إذا شاء منهم ناشىءٌ ذرّبَخت له ... لطيفةُ طىّ الكشح رابيةُ الكفلْ[1]

والأبيات — كما ترى — فيها إفحاش وإقذاع ، وفيها غضب ، ولكنه فى ظننا غضب الحريص الذى لا يرضى لعبس أن تتدنى فتطلب جوار هذا الحى من أحياء العرب ، ولعلك فطنت إلى ما فى قوله « يعزكم مولى مواليكم خجل » ، وما يوحى به من عظم المستجير وضعة المجير ، ولعلك أيضا أحسست بما أحسسنا به فى التعبير المكرر « فأصبحتم والله يفعل ذلك » من عجب ممتزج بالإشفاق ، ومن تقريع مفعم بالأسى والحسرة .

غضب النابغة كان لأن عبسا نزلت على هذا الحى بالذات من أحياء العرب ، وإلا فلم يعيرهم بنزولهم على سوى هؤلاء ونحن نعلم أن عبسا نزلت حين أخرجتها الحرب من ديارها على عديد من أحياء العرب ؟.

وعلى الجانب المقابل نرى عبسا تكاد تخفى ودها لمرة ، ونسمع من عنترة العبسى قولا يفضح منطق الحرب الجائر الذى فرق بين الإخوة ، ملقيا تبعة الأمر ووزره على حذيفة بن بدر وذلك فى خطابه لبعض بنى مرة :

واسأل حذيفة حين أرّش بيننا ... حرباً ذوائبُها بموت تحقق[2]

ويتوافق مع ذلك أن تكون « مرّة » هى الساعية للوفاق والصلح ، وأن يتحمل

---

(١) ديوان النابغة ص ١٩١ .

(٢) ديوان عنترة بن شداد العبسى تحقيق محمد سعيد مولدى ص ٢٩٢ .
وانظر أيضا كتابنا عنترة بن شداد العبسى ط دار المريخ — الرياض ص ٨٤

ساغيا غيظ بن مرة ديات القتلى ، وأعباء الدماء كما أشاد بذلك زهير بن أبى سلمى فى الأبيات المعروفة من معلقته .

* * *

ولكن هذا الخلاف الخافت المكتوم ما لبث أن كشف عن وجهه فى يوم « دارة موضوع » إذا رأينا فزارة تضرب بطون « مرة » واحدة بالأخرى ، وتعين بعضا منها على بعض ، ولعلها أحست ما تضمره « مرة » من تمرد ، وربما خشيت أن تنقلب عليها أو تحاول انتزاع الزعامة منها ، وإذا بنا نراها فى هذا اليوم تقف بثقلها إلى جوار بنى صرمة ضد إخوتهم من بنى سهم .

ويرتفع صوت الحصين بن الحمام المرى وهو من بنى سهم يصب غضبه على فزارة ، ويتأسى للود الذاهب وللحرب التى تدفع الأخ إلى قتل أخيه فيضرب بسيف لا يطاوعه أخا عزيزا ظالما :

جزى الله أفناءَ العشيرة كلها ... بدارة موضوع عقوقا ومأثما
بنى عمنا الأدنين منهم ورهطنا ... فزارة إذا رامت بنا الحرب معظما
موالى موالينا الولادةُ منهم ... ومولى اليمين حابسا متقسما
ولما رأيتُ الودَّ ليس بنافعى ... وأن كان يوما ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر فينا سجيَّةً ... بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
يُفَلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعزَّة ... علينا ، وهم كانوا أعقَّ وأظلما(١)

(١) المفضليات ص ٦٤ ، ٦٥ .

وقصة « دارة موضوع » أن بنى صرمة بن مرة كان بينهم حلف وبين بطن من قضاعة يقال لهم بنو سلامان بن سعد ، وأن بنى سهم بن مرة كان لهم حلف آخر من قضاعة أيضا هو الحرقة وهو بنو حُميس بن عامر بن جهينة ، وكان لبنى صرمة جار يهودى ولبنى سهم جار يهودى ، وكان من جوار بنى صرمة بيت من بنى عبد الله بن غطفان يقال لهم بنو جوشن ، وقتل رجل من بنى الجوشن فقتلوا به اليهودى الذى فى جوار « سهم » فانتقمت بنو سهم بقتل اليهودى الذى فى جوار صرمة ، وارتفع رأى بأن يخرج كل حى حلفه من قضاعة فأتى بنو صرمة ، واشتعل الغضب ، ورفعت السيوف ، وقد وقف بنو فزارة فى هذا اليوم إلى جوار بنى صرمة ضد بنى سهم . « انظر المفضليات هامش ص ٣١٦ »

ولعلك لحظت قول الحصين عن فزارة « إذ رامت بنا الحرب » وفى حسنا أن هناك فرقا بين « رامت حربنا » و« رامت بنا الحرب » فالتعبير الثانى وهو ما عبر به الحصين يشعر أن فزارة أرادت أن تشعل بينهم نار الحرب ، وأن تحيل وحدتهم إلى فرقة وعداوة ، وهذا ما نظن أن فزارة كانت حريصة عليه حتى لا تقوم للبيت المرى كلمة مجتمعة ، وحتى لا يكونوا على قلب رجل واحد يسلب سيادة ذبيان من البيت الفزارى ، ويستوى بعد ذلك لدى فزارة أن تقف إلى جوار صرمة أو سهم من بطون مرة ، فليس ما يهمها فى نظرنا صرمة أو سهم ، وإنما يهمها أن تظل نار الخلاف متوهجة ، وأن يراق من الدماء ما يقف حائلا دون اجتماع الكلمة .

* * *

ولكن يوم دارة موضوع يجرنا إلى الحديث عن مرة وأحلافها من قضاعة ، فقد رأينا أن كل حى من مرة كان يحالف حيا من قضاعة ؛ بنو صرمة يحالفون بنى سلامان بن سعد ، وبنو سهم يحالفون بنى حُمَيْس بن عامر بن جهينه الذين يدعون بالحرقة ، وكان كل حى شديد التمسك بحلفه وحينما ارتفع صوت ينادى بأن يخرج كل حى حليفه لم يلق أذنا صاغية فكان القتال ، وغلب اختيار الحرب على اختيار التضحية بالحليف ، وفى ذلك يقول بشامة بن الغدير :

فإمّا هلكتُ ولم آتهم ... فأبلغ أماثِل سعدٍ رسولا
بأن قومكم خُيِّروا خصلتيْن ... كلتاهما جعلوها عدولا
خزى الحياة وحرب الصديق ... وكل أراه طعاما وبيلا[1]

إذن فقد كان هناك تحالف أو قل تحالفات وثيقة بين بطون بنى مرّه وبين بطون مختلفة من قضاعة . وفى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم سر ما رميت به مرة من أنهم من عذرة لا من ذبيان[2] ، ونستطيع أن نفهم أيضا تشبث النابغة بأحلافه القضاعيين ، وتفضيله لهم على بعض قومه ، واقرأ معى قوله مخاطبا يزيد بن سنان بن حارثة :

(١) المفضليات ص ٥٩ .
(٢) جمهرة أنساب العرب ط دار المعارف ١٩٧١ م ص ٤٤٨ .

حدثتْ عليّ بطون ضنة كلها إن ظالماً فيهم وإن مظلوما
لولا بنو عوف بن بهثة أصبحت بالشّعف أم بنى أبيك عقيما[1]

وقرأ معى قوله غير ملتفت إلى ما يعيره به يزيد من أنه من عذرة :

جمع محاشك يا يزيدُ فإننى أعددت يربوعا لكم وتميما
ولحقتُ بالنسب الذى عيرتنى وتركتُ أصلك يا يزيد ذميما
عيرتنى نسب الكرام وإنما فخر المفاخر أن يعد كريما[2]

ويبدو أن هناك وقائع عديدة وقفت فيها مرة إلى جانب هذه الأحياء القضاعية الأمر الذى حدا بزهير بن أبى سلمى أن يقول فى مدحه لسنان بن أبى حارثة المرى وقومه :

إذا لقحت حرب عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهِرُّ الناس أنيابها عُصَلُ
قضاعية أو أختها مضرية يحرق فى حافاتها الحطب الجزل
تجدهم على ما خيلت هم إزاءها وإن أفسد المال الجماعات والأزل[3]

هم يخوضون — إذن — الحروب القضاعية كما يخوضون الحروب المضرية .

* * *

وإذا قد وصلنا إلى اجتلاء هذه العلاقات الوثيقة التى ربطت الأحياء المرية بالأحياء القضاعية ، فقد آن لنا أن نشير إلى علاقة مرة أو بعض بطونها بغسان ، فغير خفى صلة قضاعة بالغساسنة ، وغير خفى أيضا أن أحياءهم تقع فى دائرة النفوذ الغسانى ، وأن ديارهم تقع على الطريق الحيوى التجارى الذى يصل بين الشام واليمن والذى كان يمثل لغسان منفذا لا غنى عنه ، لذلك حرصت غسان أن يكون ولاء هذه الأحياء القضاعية لها لا لغيرها إن طوعا وإن كرها ، ولعل مما كان يقوى ولاء هذه الأحياء القضاعية لغسان أن كثيرا من

(١) ديوان النابغة ص ١٠٣ .
(٢) ديوان النابغة ص ١٠٢ .
(٣) مختار الشعر الجاهلى جـ ١ ص ٢٣٧ .

عشائرهم وأفخاذهم كان يقيم بالشام[1] ، بل كان يمثل ركنا ركينا فى الجيش الغسانى ، وإلى ذلك أشار النابغة حين وصف جيش النعمان بن الحارث فى قوله :

ساق الرُّفَيْدَاتِ من جَوْشٍ ومن عِظَمٍ ... وماش من رهط رِبْعِيٍّ وحجار
قَرْمَىْ قُضَاعَةَ حلاَّ حول حجرته ... مدًا عليه بسلاف وأنفسار
حتى استقل بجمع لا كفاء له ... ينفى الوحوش عن الصحراء جرار[2]

وطبيعى أن تجر هذه الأحياء القضاعية « مرّة » إلى موقفها ، وأن تعطفها إلى الغساسنة بعد ما علمنا من أمر العلاقة بين مرة وقضاعة ما علمنا .

وبهذا التصور وحده نستطيع أن نفسر انسحاب « مرة » من وقعة « النَّسار » ، وخذلانها لذبيان فيما دلنا عليه بشر بن أبى خازم بقوله :

ولم نهلك لمرة إذ تولوا ... فساروا سير هاربة فغاروا[3]

بل يبدو أن « مرة » قد جرت معها فريقا آخر من غطفان هم أشجع ، وقد أشار بشر أيضا إلى انسحابهم من « النَّسار » فى قوله :

وأما أشجع الخنثى فولوا ... تيوسا بالشظى لهم إيعار[4]

اتضح — إذن — أمر فزارة ومرة ، فلم تكن فزارة تفعل ما تفعله بمرة وبطونها خشية على زعامة ذبيان أن تتفلت من يدها فحسب ، وإنما كان الأمر أبعد من ذلك ، إذ كانت فزارة — وهى حيرية المنزع — تريد للتكتل الغسانى المتمثل فى مرة وقضاعة أن يظل متفرق الكلمة مشغولا بخلافاته الداخلية .

الأمر إذن تباين فى الهوى والولاء فزارة تولى وجهها شطر الحيرة ، وتدخل

(١) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٥ ، ٤٥٠ .
(٢) ديوان النابغة ص ٧٧ .
(٣) ديوان بشر بن أبى خازم تحقيق عزة حسن ط دمشق ١٩٦٠ ص ٧٢ .
(٤) المرجع نفسه ص ٧١ .

وقعة النسار لصالح أمرائها ، ومرة أو بعض بطونها تولى وجهها شطر « غسان » وتنسحب من « النسار » حين ترى أنها معركة تدار لصالح الحيرة .

وعلى هدى من هذا التصور نستطيع أن ندرك بعض أسرار شعر النابغة ، فهو شعر يصدر — فى رأينا — عن هوى غسانىّ ، وهو يمثل فى النهاية موقع بنى مرة أو على الأقل يربوع بن غيظ عشيرة النابغة وأهل بيته من هذا الصراع المحتدم بين الغساسنة والمناذرة .

ونحاول فيما يلى أن نتتبع الموقف الغسانى للنابغة وما اعتراه من تطور أو تحول ، حتى انتهى إلى اليأس والقنوط والخضوع أخيراً لأمور الحيرة .

ويمكن أن نحدد فى موقف النابغة أربع مراحل متميزة نرى فى بيانها ما يجيب عن الأسئلة المطروحة فى صدر هذا البحث .

* * *

١ — مرحلة المفارقة :

ويمكن القول : إن هذه المرحلة تبدأ فى أعقاب وقعة « النسار » أو قبيلها ، وتستمر إلى ما بعد وقعة الجفار بقليل ، أى حوالى مابين سنتى ٥٨٢و٥٨٥م .

وفى هذه الأثناء كان النعمان بن المنذر أبو قابوس قد تولى إمارة الحيرة ، وكان النعمان بن الحارث قد أعقب أباه على إمارة غسان ، وكان كلا الرجلين يسعى جاهداً لبسط نفوذه ، وكسب حلفاء جدد ، والسيطرة على كل ما يقدر عليه من أرض فى شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة فى منطقة نجد التى كانت تمثل منطقة حيوية لكلتا الإمارتين بما كان يمر بها من طرق التجارة والقوافل .

* * *

ولذلك كان الحلف الحيرى المتمثل فى فزارة وأسد يحاول انتزاع مناطق

كانت تحت النفوذ الغسانى ونرى ذلك بوضوح فى محاولات فزارة وأسد المتكرره لاحتماء بعض المناطق الغسانية ، والتربع فيها ، وإلى ذلك يشير النابغة فى قصيدته البائية :

إنى كأنى لدى النعمان خبره ... بعض الأود حديثا غير مكذوب
بأن حصناً وحيًّا من بنى أسد ... قاموا فقالوا حمانا غير مكذوب[1]

وفى قصيدته الرائية :

لقد نهيت بنى ذبيان عن «أُقَرٍ» ... وعن تربعهم فى كل أصفار[2]

وفى الجانب المقابل كان النعمان بن الحارث يسعى لصدّ هذا المدّ الحيرى ، ويمكن أن نفهم ذلك من قصيدة النابغة اللامية التى رثاه بها ، وذلك حيث يقول :

ورب بنى البرشاء ذهل وقيسها ... وشيبان حيث استبهلتها المناهلُ
لقد عالنى ما سرها وتقطعت ... لروّعاتها منّى القوى والوسائلُ
فلا يهنىء الأعداءَ مصرعُ ملكهم ... وما عتقت منه تميم ووائل
وكانت لهم ربعيَّةٌ يحذرونها ... إذا خضخضت ماءَ السماءِ القبائل[3]

كانت للنعمان بن الحارث غارة سنوية ربعية يؤدب بها الخارجين عليه ، ويردهم إلى طاعته ، وما نظن تذبذب هذه القبائل التى ذكرها النابغة إلا أثرا من آثار المدّ الحيرى فى المنطقة .

* * *

وفى هذه المرحلة كانت المفارقة واضحة بين النابغة وحزبه من مرة ، وبين فزارة وأسد ، وتبدو هذه المفارقة فيما نراه من تحذيرات النابغة لفزارة وأسد من عاقبة عصيان الغساسنة والتمرد عليهم ، ونرى النابغة يضع أمام مخالفيه

(١) ديوان النابغة ص ٤٩ .
(٢) ديوان النابغة ص ٧٥ .
(٣) ديوان النابغة ص ١١٨ .

صورة ما ينتظرهم من هوان ، ويمثل لهم ذلك تمثيلا مفزعا مخيفا إذ يعرض أمام أعينهم صورة السبايا تزجى خلف العبيد على المراكب الخشنة ، لا يوقين فاحشة ، ولا يرق قلب لدموعهن ، يأملن نجدة زعيمى فزارة حصن بن حذيفة وابن سيار حيث لا يرجى أمل :

لا أعرفنْ وبربا حُوراً مدامعها ... كأنّ أبكارها نعاج دوّار
ينظرن شزراً إلى من جاء من عُرُضٍ ... بأوجهٍ منكراتِ الرّق أحرار
خلف العضاريط لا يوقّين فاحشةً ... مستمسكات بأثْنابٍ وأكوار
يذرين دمعاً على الأشفارِ منحدرا ... يأملن رحلة حصن وابنِ سيّار[1]

ويبلغ أمر الخلاف بين النابغة ومخالفيه إلى الحد الذى يهتزهم ، وينسحب بفريق من مرة إلى حرّة النار :

إما عصيت فإنى غير منفلت ... منّى اللصاب فجنبا حرة النار[2]

وقد أطلق النابغة فى هذه المرحلة لسانه فى فزارة وعلى الأخص زعيمها حصن فراه يسخر منه سخرية موجعة ويصمه بالفرار والتخاذل ، وترك أحلافه وأمواله نهبا للجيش الغسانى وذلك فى قوله :

وما بحصن نعامٌ إذ تؤرّقُه ... أصواتُ حيٍّ على الأمرار محروب
ظلت أقاطيعُ أنعامٍ مؤبّلةٍ ... لدى صليب لدى الزوراء منصوبِ
فإذْ وقيت بحمد الله شرتها ... فاخبى فزار إلى الأطوارِ واللوب[3]

ونحس أيضا الفرح الشامت لما حل ببنى أسد فيما يصوره النابغة من طريدهم الذى لن يفلت ، ومن أسرهم الموثق بالحبال ، ومن هذه السبية الجميلة التى قد كبلت معاصمها وعراقيبها ، وكلما عضها القيد نادت قومها من قعين ، وأين قومها ؟ لقد استبيحت ديارهم ، وعاثت فيها فرسان غسان

(١) الديوان ص ٧٥ .
(٢) الديوان ص ٧٦ .
(٣) الديوان ص ٥٢ .

من سوء عاودعمى وأيوب :

لم يبق غيرُ طريد غير مُنفلتٍ ... ومُوثِق فى حبال القدّ مسلوب
أو حُرَّة كمهاة الرمل قد كبلت ... فوق المعاصم منها والعراقيب
تدعو فُعَيْناً وقد عضّ الحديدُ بها ... عضّ الثقاف على صمّ الأنابيب
مستشعرين قد ألفَوْا فى ديارهم ... دعاءَ سُرْع ودعمىٍّ وأيوب[1]

وقد يملكنا العجب لما نراه من ابتهاج النابغة بغزو غسان لقومه فى هذه الأبيات :

لعمرى لنعم الحىُّ صبَّحَ سرْبَنا ... وأبياتَنا يوماً بذات المراود
يقودهم النعمانُ منه بمحصف ... وكيْد يعم الخارجىٌّ مناجد
وشيمةِ لاوانٍ ولا واهن القوى ... وجلْد إذا خاب المفيدون صاعد
فآب بأبكارٍ وعُونٍ عقائل ... أوانسَ يحميها امرؤٌ غير زاهد
يخططن بالعيدان فى كل مقعد ... ويحْبُأن رمّان الثَّدِىِّ النواهد[2]

أرأيت إليه يثنى على الجيش الغسانىّ الذى هاجم قومه « لنعم الحى صبح سربنا !! » ؟ أرأيت إليه يثنى على النعمان ورأيه وكيده وشيمته وجده لأنه غزا أهله وعشيرته ؟! ثم أرأيت إليه مبتهجا سعيدا بما سباه جيش النعمان من نساء قومه ناهدات الصدور وقد وكلت حمايتهن إلى امرىء غير زاهد ؟!

أتقول بعد ذلك : إنه رجل يسعى لصالح ذبيان ، ويقف منهم موقف الناصح الحريص ؟ أتقول : إنه كان يتضاءل بنفسه وقومه لسل سخيمة غسان على قومه ؟

ولكن ألا ترى معى أن ما نراه ليس نصحا ولا تضاؤلا ، إنها شماتة من أصاب مقتلا من خصمه ، وشفى نفسا من مخالفه ، إنه الامتنان لغسان وجيشها « لنعم الحى صبح سربنا » ، إنه التشهير بأعراض ذبيان « آب بأبكار

(١) الديوان ص ٥٣ .
(٢) الديوان ص ١٣٩

وعون يحميها امرؤ غير زاهد » ، « يخبأ من رمان الندى النواهد » ولماذا يخبأه ؟ ألا ترى ما يوحى به القول من تطاول الأيدى العابثة ؟ أين إذن نعرة العرف وغيرته وأين عصبيته للفيلة ؟ ألا ترى بعد ذلك أن فزارة كانت لها مبرراتها حينما وصمت النابغة بأنه عذرىّ لا ذبيانى ؟ ولعلها كانت تقصد أنه غسانىّ الهوى .

نعم .. إنه اختلاف الهوى بين فريقين أحدهما وعلى رأسه النابغة منجذب إلى الشمال حيث الغساسنة ، والآخر منجذب للشرق حيث المناذرة ، وكل منهما يود أن يطوى صاحبه تحت جناحه ، أو يعطفه إلى وجهته .

وفى ذروة انتشاء النابغة بضربات الغسانيين النافذة الموجعة لبنى فزارة وبنى أسد لا يلقى بالا لمن يسخر منه ، ويتهمه بالجبن والخوف[1] فيرد عليهم بأنه لا يجد فى خوفه من عار إذا كان هذا الخوف خوفا من وغسان :

وعيرتنى بنو ذبيان خشيته وهل علىّ بأن أخشاك من عار[2]

بل إن النابغة فى هذه الغمرة لا يبالى إذا أصابه بعض شرر من هذه الضربات طالما كانت موجعة لخصومه ومخالفيه حتى ولو تمثل هذا الشرر فى أخذ ابنته أسيرة فيما تحدثنا به الروايات ، أو تمثل فى إيقاع بعض الضر ببنى غيظ بن مرة رهطه الأقربين ، وبدلا من أن يثور لما حل بابنته وأهله نراه يتقبل فعل غسان بهم بروح راضية ممتنة ، ويرى أن هذا الضر نعمى تجللهم لابد أن يقابلوها بالشكر :

أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده وجللها نعمى على غير واحد

ولا نرى تفسيرا لذلك إلا أنه رجل ذاب فى هوى غسان ، وغطى هواه على كل ما عداه مما يقتضيه حق القربى والدم .

---

(١) انظر أبيات [illegible] من حفل فى اتهام النابغة بالجبن ديوان النابغة ص ٧٩ .

(٢) الديوان ص ٧٨ .

هذه هى المرحلة الأولى فى موقف النابغة وقد رأينا فيها مفارقة صريحة بين النابغة وحزبه وبين فزارة وأسد ، ورأينا فيها النابغة يقدم حق الولاء على حق القرابة ، ويبالغ فى تسفيه آراء مخالفيه من أسد وفزارة ، ويرقب بعين الشماتة ما يقع بهم من الضربات الغسانية .

* * *

٢ ــ مرحلة التقارب :

نستطيع أن نحدد هذه المرحلة بالمدة التى تلت موقعة « الجفار » ، وانتهت بوقعة « ظهر الدهناء » التى انتصرت فيها طيىء على أسد .

ولم نستطيع أن نحدد تاريخ وقعة « ظهر الدهناء » تحديدا قاطعا ، ولكننا نقدر أنها لم تتأخر كثيرا عن « الجفار » ولا تتجاوز بحال عام ٥٨٧ م أى أن هذه المدة استغرقت عامين على وجه التقريب .

أما لماذا اخترنا وقعة ظهر الدهناء حدا لهذه المرحلة فهذا ما سنقف عليه فيما يستقبلنا من القول .

إن أهم ما نلمحه فى هذه المرحلة هو الانشقاق الذى حدث فى صفوف التكتل الحيرى فانسحبت طيىء فى أحرج وقت من وقعة الجفار التى كان يخوضها الأحاليف ضد بطون عدة من تميم ، وقد أشار بشر بن أبى خازم إلى هذا الحدث فى قوله :

واسأل تميماً بنا يوم الجفار ، وسل ... عنا بنى لأم إذ ولّوا ولم يقفوا
لما رأوا قسطلا بالقاع أفزعهم ... وأبصروا الخيل شعثا كلها يجف[1]

وقد قدرنا فى حديثنا عن بشر بن أبى خازم أن هذا الانسحاب كان له ما يبرره فى طيىء ، إذ إنها كانت دائما تتحسب الغساسنة فديارها موالية لهم ، ومكشوفة أمام جيوشهم ، ومن أجل هذا كانت متذبذبة فى علاقاتها بالمناذرة ،

(١) ديوان بشر بن أبى خازم ص ١٤٠

وكان المنادرة يغدرون. ذلك فيسرفون فى تألف زعمائها ، والإغداق عليهم ، وتقديم العون لهم[1]

والذى حدث بعد ذلك أن النعمان بن المنذر حين رابه أمر طيىء أراد أن يستدرك الأمر ، ويعيدها إلى ساحته من جديد فخلع على زعيمها أوس بن حارثة بن لأم ، وأقطعه ربع الطريق التجارى[2] .

ولم يلتفت الرواة إلى ربع الطريق التجارى ، ولكنهم نسجوا رواية طريفة مشوقة عن تلك الخلة التى جعلها النعمان من نصيب أكرم العرب ثم كانت أخيرا من نصيب أوس بن حارثة زعيم طيىء[3] .

ولم يرق فعل أمير الحيرة رعماء فزارة وأسد فكتموها فى نفوسهم ، وتجافوا عنه ، وصبوا جام غضبهم على أوس بن حارثة على لسان بشر بن أبى خازم شاعر بنى أسد الذى جعل يهدد أوسا ويتوعده ، ثم كان أن نطق أخيرا بما أحفظ قومه وأحلافهم على أوس فى قوله :

ألا بلحت خفارة آل لأم فلا شاة ترد ولا بعيرا[4]

إنها الخفارة إذن وما يتصل بها من ربع الطريق التجارى الذى كان هبة أمير الحيرة إلى أوس بن حارثة .

* * *

والذى نلمحه فى هذه المرحلة هو هذا التقارب الواضح بين النابغة ومعه حزبه المرى ، وبين فزارة وأسد ، وربما بدا للنابغة أنه قاب قوسين من هدفه ، وربما دار أيضا فى خلد الفزاريين والأسديين أن يخلعوا أنفسهم من ربقة الولاء لأمراء الحيرة .

---

(١) انظر كتابنا بشر بن أبى خازم الأسدى فصل : بشر وقضايا قومه .

(٢) انظر الأغانى حـ ١٧ ص ٣٩١ أخبار حاتم الكانى .

(٣) انظر هذه القصة فى الكامل للمبرد ص ١٩٩ ، والكامل لابن الأثير ١/٢٢٩ وخزانة الأدب للبغدادى حـ ٢/٢٦٣

(٤) ديوان بشر بن أبى خازم ص ٩٠

ونقدر أن مدحة زهير بن أبي سلمى الوحيدة لحصن بن حذيفة رعيم فزارة كانت في هذه المدة ، ولا غرو في ذلك فزهير محمول على مرة ومعبر عنها ، وربما يلفتنا في مدحته اللامية هذه قوله :

ومن مثل حصن في الحروب ومثله ... لإنكار ضيم أو لأمر يحاوله
أبى الضَّيْمَ والنعمانُ يَخْرُقُ نابهُ ... عليه فأفضى والسيوف معاقله[1]

فما هذا الضيم الذي يأباه حصن ؟ وما هذا الأمر الذي يحاوله ؟ وما هذا الذي فعله حصن فجعل نائب النعمان يصرف غيظا ، ثم أخيرا ما هذه السيوف والمعاقل التي أفضى إليها حصن ؟

إن هذين البيتين فضلا عما يضعانه أمام العين من حقيقة الجفوة بين حصن بن حذيفة والنعمان أبي قابوس فإن فيهما حثا لحصن أن يمضي في طريقه فله من سيوف قومه ما يذود عنه غضبة النعمان .

لعلنا نكون قد وصلنا الآن إلى الكشف عن سر هذا التقارب الذي حدث في هذه المرحلة بين حزب النابغة المري ، وبين الحلف الفزاري الأسدي ، لقد ألف بينهم — إذن — مجافاة الحيرة .

وربما بدا الأمر لنا أبعد من هذا ، وربما ذهبنا إلى أن النابغة أراد أن ينتهز الموقف ، وأن يعطف هذا التكتل الفزاري الأسدي إلى الغساسنة ، وربما بدا له أن يستقطب أيضا بطونا من طيىء كانت منشقة على أوس بن حارثة الطائي . واقرأ معي هذا الخبر الذي ورد في الأغاني :

« أقبل ركب من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان ، فلقوا حاتما ، فقالوا له : إن تركنا قومنا يثنون عليك خيرا ، وقد أرسلوا إليك رسولا برسالة ، قال : وما هي ؟ فأنشده الأسديون شعرا لعبيد ولبشر يمدحانه ، وأنشده القيسيون شعرا للنابغة »[2] .

(١) مختار الشعر الجاهلي ص ٢٤٥ ويخرق نابه يصرف من الغيظ
(٢) الأغاني جـ ١٧ ص ٣٩١

ودعك من وجهة هذا الركب فرواة الأخبار كان يروق لهم أن يذكروا « النعمان » بمبرر وبدون مبرر ، ثم ما الذى يمنع أن يكون المقصود النعمان بن الحارث لا أبا قابوس فليس فى الخبر تحديد .

ولكن ما فحوى هذه الرسالة التى حملها هذا الوفد القيسى الأسدى؟ وماذا يا ترى كان فى شعر النابغة وبشر ؟ ولا يغيب عنا — فى هذا المجال — أن نلفت إلى العلائق الحميمة التى كانت تربط حاتما الطائى ببنى بدر زعماء قزارة فقد أجاروه أيام حروب الفساد فى طيىء ، وذكر حاتم هذا الصنيع ممتنا لبنى بدر فى شعره [1]

وليس هذا هو الخبر الوحيد الذى يكشف لنا عن هذه الاتصالات بين النابغة وبين حاتم الطائى ، فهناك خبر آخر أيضا يحكى أن النابغة وبشر بن أبى خازم وعبيد بن الأبرص توجهوا إلى حاتم الطائى فى طريقهم إلى النعمان[2] . أيضا النعمان .. ولكن أى النعمانين هو ؟.

وقد كنا ظننا فى حديثنا عن بشر بن أبى خازم أن الأمر مجرد تأليب حاتم وقومه بنى ثعل على أوس بن حارثة ، ولكن ألا يحق لنا الآن أن ننظر إلى مثل هذه الأخبار فى سياق جديد ، وأن نقول إن الأمر كان سعيا لإيجاد تكتل جديد موال للغساسنة .

ولذلك نقدر أن النابغة فى هذه المرحلة نظم قصائده التى يشيد فيها ببنى أسد وهى ثلاث قصائد :

الأولى :

قالت بنو عامر خالُوا بنى أسد يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام[3]

الثانية :

نبئت زُرْعة والسفاهة كاسمها يهدى إلى غرائب الأشعار[4]

(١) الأغانى حـ ١٧ ص ٣٩٣

(٢) الأغانى حـ ١٧ ص ٣٦٧

(٣) ديوان النابغة ص ٨٢

(٤) الديوان ص ٥٤

الثالثة :

ليهنىء بنى ذبيان أن بلادهم خلت لهم من كل مولى وتابع[1]

والقصيدتان الأولى والثانية موجهتان إلى زرعة بن عمرو بن خويلد العامرى ، وكان عرض على النابغة المصالحة بين ذبيان وبين بنى عامر على شريطة أن تتخلى ذبيان عن حلفها مع أسد ، ولعل هذا المطلب من عامر يأتى فى سياقه الطبيعى فى هذه المرحلة بعد أن رأت عامر أن زعماء ذبيان تجافوا عن الجيرة عندهم اللدود الذى أوقع بهم بيد مواليه فى النسار .

ولكن الذى يلفتنا أن النابغة رفض هذا العرض ، وأصر على أن تكون المصالحة — إن كانت — للجميع وإلا فلا مصالحة :

قالت بنو عامر خالُوا بنى أسيد يا بؤسَ للجهلِ ضَرّاراً لأقوام
بأنى البلاءُ فلا نبغى بهم بدلا ولا نريد خِلاءً بعد إحْكَامِ
فصالحونا جميعاً إن بدا لكم ولا تقولوا لنا أمثالَها عامِ

ونراه يصم زرعة بالسفاهة :

نبئت زُرْعَةَ والسفاهةُ كاسمها يهدى إلىّ غرائب الأشعار

ونراه يبين له أن الطريق افترقت بينهما فلا لقاء بين البرة والفجار :

إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملتُ برّة ، واحتملت فجار

وفى ظننا أن هدف عامر ما كان يغيب عن النابغة ، لقد أرادته بنو عامر تكتلا قيسيا ولذلك رأت إخراج بنى أسد منه ، أما النابغة فقد كان يرجو ولاء هذا التكتل لناحية أخرى لم تعد خافية لذلك رفض العرض العامرى فى عنف .

وقد يقال : ولماذا لا يكون ذلك غضبا من النابغة لأخواله فى بنى أسد ؟ ونقول : ولماذا — إذن — لم يرع حق أخواله فيما سبق أن قرأناه له من قول ؟.

---

(١) الديوان ص ٨٦

إن ما يلفتنا فى شعر النابغة الأسدى لهذه المرحلة أنه يشيد ببنى أسد إشادة مبالغا فيها ، ويقف عند بطونهم بطنا بطنا وكأنه يحاول أن يرضى كل أطرافهم أو يؤلف قلوب جميع أبناء القبيلة ، ولعلنا الآن ندرك سر ذلك ، فاقرأ قوله :

رهطُ ابنِ كُوزٍ محقبى أدراعهم ... فيهم ورهط ربيعة بن حُذَارِ
ولرهطِ حرّاب وفلّ سُورَةٌ ... فى المجد ليس غُرابُها بمُطارِ
وبنو قُعَيْن لا محالة أنهم ... آتوك غير مقلمى الأظفارِ
سَهكين من صدأ الحديد كأنهم ... تحت السُّتُور جِنَّةُ البَقّارِ
وبنو سُواءَة زائروك بوفدهم ... جيشا يقودهم أبو المظفارِ

ويمضى النابغة معددا بطون أسد فيقف عند بنى جذيمة وبنى غاضرة فإذا أحس أنه أوفى واستوفى قال :

حول بنو دوران لا يعصوننى ... وبنو بغيض كلهم أنصارى

« لا يعصوننى » تلك ـــ إذن ـــ غاية القول وبغية القائل عدم العصيان ، الطاعة ، ولكن فى أى شىء ؟!.

لقد بلغت إشادة النابغة ببنى أسد فى هذه المرحلة إلى الحد الذى فضلهم فيه على بعض بطون مرة من « سهم » ومن « مالك » :

فدع عنك قوما لا عتاب عليهم ... هم ألحقوا عبسا بأرض القعاقع
وقد عَـرّتْ من دونهم بأكفهم ... بنو عامر عَـرّ المخاض الموانع
فما أنا فى سهم ولا نصر مالك ... ومولاهم عبد بن سعد بطامع
إذا نزلوا ذا ضَرْغَدٍ فعتائدا ... يغنيهم فيها نقيق الضفادع
تعودا لدى أبياتهم يشمدونها ... رمى الله فى تلك الأنوف الكوانع

ولا عتاب على النابغة أن يذكر بلاء أسد بعبس ، ولا عتاب عليه أيضا أن يشير إلى بلائهم فى النصار طالما أن فى هذا القول ما يرضى بنى أسد ، وطالما أن حديث هذه المعارك أصبح فى عداد الذكريات ، ولكن السؤال هنا لم سهم

ومالك ومولاهم عبد بن سعد بالذات هم الذين فضل عليهم بنى أسد ، وقطع رجاءه من نصرهم ، ورماهم بالذلة والخنوع ؟

ولا بد أن نقدر أن بطونا من مرة كانت غير راضية عن تقارب النابغة من فزارة ، وهذه البطون هى التى اكتوت بنار فزارة فى يوم دارة موضوع ، ومازلنا نذكر صرخة الحصين بن الحمام المرى فى هذا اليوم .

بنى عمنا الأدنين منهم ورهطنا فزارة إذ رامت بنا الحرب معظما

والحصين بن الحمام كان من بنى سهم هؤلاء الذين وصمهم النابغة بالخنوع أنكون قد جاوزنا الحقيقة لو تصورنا أن بنى سهم تزعمت فريقا معارضا للنابغة ، وانتبذ هذا الفريق مكانا اعتزل فيه بعيدا عن هذه التيارات المتصارعة ، وتشاغل عن النابغة ودعوته ؟

* * *

وقبل أن نترك شعر النابغة الأسدى لهذه المرحلة نحب أن نقف عند قصيدة قد يعترض علينا بها وهى قصيدته :

غشيتُ منازلا بعرتينات فأعل الجزع للحى المبين[1]

وما قد يعترض علينا به هو ما جاء فى سياق الإشادة بأمجاد بنى أسد من هذه القصيدة من قوله :

وهم زحفوا لغسان بزحف رحيب السَّرب أرعن مرجحن
بكل مجرب كالليث يسمو على أوصال ذيّال رفن
وضمر كالقداح مسومات عليها معشر أشباه جن
غداة تعاورتــه ثم بيض دفعن إليه فى الرهج المكن

ووجه الاعتراض هنا هو ما يشيد به النابغة من زحف أسد على غسان ، وهو مالا يتفق مع تصورنا لموقف النابغة ، إن لم يقوضه من أساسه .

(١) الديوان ص ١٢٥ .

ولكنا بداية نقول : إن فى النفس شيئا من هذه القصيدة فهى لم ترد فى رواية الأصمعى ، ولكنها وردت فى نسخة الأعلم على عهدة الطوسى .

وثانيا : فإن المناسبة التى وضعت فى إطارها هذه القصيدة بالغة العجب إذ جاء فيها :

« وقال النابغة — فى رواية الطوسى — حين قتلت عبس نضلة الأسدى ، وقتلت بنو أسد منهم رجلين ، فأراد عينيه عون بنى عبس ، أن يخرج بنى أسد من حلف بنى ذبيان » .

وهذا الخبر يكذب بعضه بعضا ، فمقتل « نضلة » حادث قديم لم يشهده عيينة إذ الثابت لدينا أنه قتل قبل « شعب جبلة » ورثاه الجميع الأسدى بقصيدته الميمية .

يا جار نضلة قد أتى لك أن تسعى بجارك فى بنى هدم[1]

والمعروف أيضا أن الجميع قتل فى شعب جبلة[2] إذن فقد كان مقتل نضلة قبل سنة ٥٥١ م وهو التاريخ الذى حدثت فيه وقعة شعب جبلة بين عامر وعبس وبين ذبيان وأحلافها فما شأن عيينه بهذا التاريخ ؟

وإذا تغاضينا عن هذا فما شأن عبس بما نحن فيه من أحداث ؟ وما معنى القول :

أتخذل ناصرى وتعز عبسا أيربوع بن غيظ للمعن

إن الصلح استقر بين عبس وذبيان منذ أمد ، ولم نسمع بعد ذلك بخلاف بين عبس وذبيان ، أو بين عبس وأحلاف ذبيان .

وثالثا : أشارت القصيدة إلى يوم عكاظ فى البيت :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إنى

(١) المفضلية رقم ١٠٩ .

(٢) انظر المفضليات هامش ص ٣٦٦

شهدت لهم مواطن صادقات أتيتهم بود الصدر منى

ويوم عكاظ كان على رأس الحول الرابع من الفجار الثانى[1] وهو يوم متأخر عما نحن فيه من أحداث ، وما نظنه حدث والنابغة على ولائه الظاهر للغساسنة .

ورابعا : إننا لم نسمع من النابغة قولا يسىء إلى غسان حتى وهو فى ذروة محنته وإنما كان قوله :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أموالهم وأقرب

فكيف يتشفى فى هذه القصيدة من مصارع الجيش الغسانى ، هذا ما نستبعده .

ولكن على فرض أن النابغة قال هذه القصيدة — ولا نسلم له بها كلها — فإن الاعتراض بها ساقط لأنها قيلت فى مرحلة متأخرة بعد أن ترعم عيينه قومه ، وما نظن ذلك إلا قبيل الإسلام ، وبعد أن أدار النابغة ظهره لغسان .

* * *

ومهما كان من أمر فقد اعتز النابغة فى هذه المرحلة بأشياعه الجدد ، أو بمن خيل إليه أنهم كذلك ، ونحس غير قليل من النشوة يسرى فى أوصال قصيده حين يخيّل إليه أنه أصبح زعيم فزارة وأسد لا يعصون له قولا :

حولى بنو دودان لا يعصوننى وبنو بغيض كلهم أنصارى
زيد بن زيد حاضرٌ بعُرَاعِر وعلى كُثَيْب مالك بن حمار
وعلى الرُّمَيْثة من سُكَيْن حاضر وعلى الدُّثَيْنَة من بنى سيار[2]

* * *

(١) أيام العرب فى الجاهلية ص ٣٣٤

(٢) الديوان ص ٥٩ .

ويبدو أن النابغة فى سكرة هذا الزهو ، أطلق لسانه فى النعمان أبى قابوس غير مقدر للعواقب ، وينبغى أن ننظر بعين الاعتبار إلى ما نسب إليه فى ذلك. من مثل القول :

ملك يلاعب أمه وقطينه ... رخو المفاصل أيره كالمرود[1]

أو من مثل القول الذى يصم أبا قابوس بالعجز والضعف وضعة النسب :

قبح الله ثم ثنى بلعن ... وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر ... الأقاصى ، ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ... ثم لا يرزأ العدو فتيلا[2]

فهذا القول ــ حتى ولو شك فى صحة نسبته إلى النابغة ــ يمثل على الأقل نظرة النابغة إلى ابن المنذر التى عرفها عنه معاصروه ، وإلا لما حملوا عليه هذا القول وأمثاله .

وعلى ذلك فنحن نقدر أن النابغة نظم قصيدته ذائعة الصيت فى وصف المتجردة فى هذه المرحلة سخرية بالنعمان وتندرا به ، والكيد بالنسيب والغزل باب من أبواب القول عرفه العرب ، وما نظن ابن قيس الرقيات حين استخدم هذا الفن فى التندر ببنى أمية كان يقول على غير نظام سلف ، أو ينسج على غير منوال .

قصيدة النابغة فى المتجردة أصيلة له فى نظرنا ، ويكفى أنها وردت فى أوثق أجزاء الديوان رواية ، رواها الأصمعى وهو من هو فى الرواية .

والشك فى هذه القصيدة ــ فيما نظن ــ راجع إلى الربط بينها وبين إطارها الذى وضعت فيه من أن النعمان طلب إلى النابغة أن يصف زوجته المتجردة فوصفها ، أو من أن النابغة رآها فى بعض دخلاته على النعمان فسقط نصيفها

(١) الأغانى حـ ٩ ص ١٦٥ .
(٢) الأغانى حـ ٩ ص ١٦٥ .

عنها من المفاجأة فأشار إلى ذلك فى قصيدته ، أو من أن النعمان سمع القصيدة فطرب لها فى البداية حتى نبه إلى ما فيها من تشهير فتنبه .

وربط القصيدة بهذا الإطار لابد أن ينتهى بصاحبه إلى الشك إذ لا يعقل أن يكون النعمان على هذه الدرجة من التحلل والغفلة .

والصحيح فى نظرنا أن هذا الإطار من نسج القصاص الذين درجوا على صنع مثل هذه الأقاصيص ترجمة لبضاعتهم فى مجالس الأسمار والتسلية وترويجا لها ، وطبيعى أن يكون لهذا القصص ما يتكىء عليه فى النص المروى من قول فهم على غير وجهه وخلافا لما قصده به صاحبه ، وفى ظننا أن هذا الإطار اتكأ على قول النابغة :

زعم الهمام بأن فاها بارد ... عذب مقبله شهى المورد
زعم الهمام — ولم أذقه — أنه ... عذب إذا ما ذقته قلت ازرد
زعم الهمام — ولم أذقه — أنه ... يشفى بريا ريقها العطش الصدى

ومن زعم الهمام فى امرأته ، ومن احتراس النابغة أنه يصف على السماع لا التجريب قام لهؤلاء القصاص هيكل قصتهم فلابد أن وصف النابغة لهذا الزعم أو لما يصوره كان بناء على طلب من صاحبه ، وإذ استقام للقصاص هذا الهيكل راحوا يملأونه بالتفاصيل والأحداث والشخصيات التى لا يهمهم كثيرا التثبت منها .

وغاب عن هؤلاء القصاص أن القول له وجهة أخرى هى المبالغة فى السخرية بإجراء هذه الأوصاف على لسان أحرص الناس على كتمانها وعدم البوح بها ، وفى ذلك ما فيه من إظهار التحلل الخلقى ، وعدم الغيرة ، وتوله هذا الجالس على سرير الملك بامرأة شغله الحديث عنها عن أعباء ملكه .

الفصل إذن بين القصيدة وإطارها — بعد أن تكشف لنا زيف الإطار — يزيل ما أحاط بها من شكوك ويثبت أصالتها فى شعر النابغة ، ويضعها فى

سياقها المنطقى من أنها تشبيب أريد به الكيد والسخرية .

ومن نقل القول بعد ذلك أن نقول إن النابغة نظم هذه القصيدة ولما يلتق بالنعمان ..

ولا يقال إن فى القصيدة من الفحش ما كان النابغة ينزه شعره عنه فقد سبق أن عرضنا من شعر النابغة فى وصف ماحل بنساء بنى عبس فى ديار بنى عامر ما يسقط هذا القول وينفيه .

وثمة أخرى ترجح صحة هذه القصيدة وهى أن النابغة فى اعتذاره للنعمان أبى قابوس كان يعتذر عن قول وفعل .

أما الفعل فقد عرفناه ، وقد اعتذر عنه بقوله :

ولكننى كنت امرأ لى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أموالهم وأقرب

كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

إذن فما القول الذى وصفه النابغة بأنه « هلهل النسج كاذب » « قول لم أكن لأقوله ولو كبلت فى ساعدى الجوامع » .

أيعدو هذه القصيدة التى انطلق بها لسان النابغة فى نشوته الحالمة المؤملة ، والتى لا بد أن يكون قد تناهى إلى أبى قابوس بعض منها أو شوارد من أبياتها .

٣ ــ الضغط الحيرىّ :

ونرى أن هذه المرحلة تبدأ بوقعة « ظهر الدهناء » التى انتصرت فيها طيىء على أسد ، وتنتهى بخضوع النابغة واعتذاره للنعمان أبى قابوس ، ولا نرى أن هذه المرحلة استغرقت أكثر من عامين أو ثلاثة على أبعد تقدير .

وقد حددنا بداية هذه المرحلة بظهر الدهناء لأن هذه الوقعة ــ فى نظرنا ــ كانت حدا للتمرد الغزارى الأسدى على أمراء الحيرة .

وفى ظننا أن الحيرة وقفت من وراء بنى لأم فى هذه الوقعة وأعانتهم على تحقيق النصر على بنى أسد ، وإلا فكيف نتخيل أن يحقق بنو لأم — وهم بطن من طيىء — مثل هذا النصر على « أسد » وهى القبيلة التى اضطلعت — فى رأينا — بأعباء النصر فى وقعة « النسار » .

والذى نظنه أن أمير الحيرة لما استراب بفزارة وأسد ، ولما أقلقه ما رأى من تحركاتهم ومن تقاربهم مع هذا الحزب المرى الذى يتزعمه النابغة أراد أن يلوح بالقوة ليفهم هؤلاء المتمردين أنه قادر عليهم ، وأنهم لن يستطيعوا الإفلات من قبضته .

والذى نظنه كذلك أن هذه الوقعة أتت بثارها المرجوة للحيرة فخضعت بنو أسد ، وصمت شاعرها بشر بن أبى خازم عن هجائه لأوس بن حارثة ، وأسرع يعتذر ويغسل ما كان دنس من ثوب أوس ، وأما فزارة فقد ضمرت بجرتها ، وسكنت حركتها خوفا وتحسبا .

إذن فمعركة ظهر الدهناء كانت تلويحا بالقوة لا أكثر ، وما نظن أن أبا قابوس أراد بها أن تكون غير ذلك ، وما نظنه — بعد أن استتب الأمر — إلا متدبرا أمر حلفائه ، محاولا أن يستل ما فى صدورهم من ضغن ، مغدقا عليهم بعض نعمه ، مسترضيا زعماءهم ، مؤاسيا لمن أصابتهم ظهر الدهناء بشواظ من نارها .

والذى يرجح لدينا ذلك ما رأيناه من إطلاق أوس بن حارثة زعيم بنى لأم لبشر بن أبى خازم ، ومن منه عليه وإنعامه بعدما كان قد توعده بحرقه وبقطع لسانه ، وما نظن أن هذا الفعل تم على هذا النحو غير المتوقع دون إيعاز وتوجيه من أمير الحيرة .

ولنا أن نقدر أن صنيعا مماثلا تم مع زعماء بنى فزارة بحيث نستطيع القول : إن وقعة ظهر الدهناء وما أعقبها من ترضية عادت من جديد بالحلف النزارى الأسدى إلى ساحة الولاء لأمراء الحيرة .

وطبيعى ــ بعد ذلك ــ أن يبدأ التباعد بين النابغة وحزبه من بنى مرة وبين فزارة وأسد الذين استظهر بهم قبل ظهر الدهناء وظن أن ولاءهم غدا على ولائه ، أو غدا ــ على الأقل ــ قريبا منه .

ولا نشك أن ما حدث بعد ظهر الدهناء كان صدمة مروعة للنابغة ، فإذا أضفنا إليها صدمة أخرى تمثلت فى موت النعمان بن الحارث وقد كان ــ كما سلف القول ــ ملكا نشطا اتضح لنا عمق الفاجعة التى عاشها النابغة آنذاك ، واتضح لنا أيضا سر هذه اللوعة التى تسرى فى قصيدته التى رثى بها ملكه الحميم :

لقد عانتى ما مرها وتقطعت ... لروعاتها منى القوى والوسائل
....
يقول رجال ينكرون خليقتى ... لعل زيادا ــ لا أبالك ــ غافل
أبى غفلتى أنى إذا ما ذكرته ... تحرك داء فى فؤادى داخل
....
فإن تمس لا أملل حياتى وإن تمت ... فما فى حياة بعد موتك طائل[1]

واتضح لنا أيضا سر لهفته اليائسة التى تتشبث بالأمل الخادع فى رجوع النعمان :

إن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ... ويأت معدا ملكها وربيعها
ويرجع إلى غسان ملك وسؤدد ... وتلك المنى ، لو أننا نستطيعها
وان يهلك النعمان تعر مطية ... ويلق إلى جنب الفناء قطوعها
وتنحط حصان آخر الليل غحطة ... تقصقص منها أو تكاد ضلوعها[2]

ويبدو أن عمرو بن الحارث الذى جلس بعد أخيه على سرير الملك الغسانى كان ضعيفا مترددا فرأى أمير الحيرة أن الفرصة مهيأة لسد هذه الثغرة المريبة

(١) الديوان ص ١١٥ .
(٢) الديوان ص ١٠٧ .

التي يتزعمها النابغة في ذبيان ، وربما أوعز إلى أحلافه من فزارة أن يتولوا هذا الأمر .

وقد رأت فزارة — في ظننا — أن تبدأ بتفريق شمل هذا التجمع المرئي فبدأت تبذر بذور الشقاق في بني عوف ، وتؤلبهم على صاحبهم ، وتغريهم بالانصراف عنه إلى من هم أجدى نفعا وأعز نفرا .

ويبدو أن هذه الخطة قد نجحت ، وأن بني عوف قد بدأوا يشقون عصا الطاعة على صاحبهم ، ونلمح ذلك في تلك الأبيات الشاكية التي يتوجه بها النابغة إلى عمرو بن الحارث بعد أن أعياه أمر قومه ، واتسع عليه خرقهم . يقول :

وإني عداني عن لقائك حادثٌ ... وهم أتى من دون همك شاغلي
نصحت بني عوف فلم يتقبلوا ... وَصَاتي ، ولم تنجح لديهم وسائلي
فقلت لهم : لا أعرفن عقائلا ... رعايبَ من جنبيْ أريك وعاقل
ضوارب بالأيدي وراء براغزٍ ... حساناً كآرام الصريم الخواذل[1]

وطبيعي أن يخيب مثل هذا النصح الذي يعتمد دائما على الترهيب حتى إن الناصح نفسه يرتعد فرقا وخوفا كما يصور نفسه :

وقد خفت حتى ما تزيدُ مخافتي ... على وَعَلٍ في ذي المطارة عاقل
مخافة عمرو أن تكون جياده ... يُقدن إلينا بين حافٍ وناعل

وما كانت سياسة الحيرة هكذا ولكنها سياسة لا تميل إلى استخدام القوة بقدر ما تميل إلى الترغيب بما تقدمه من عون ، وامتيازات ، وهبات كانت القبائل العربية آنذاك — وبخاصة في منطقة نجد — في مسيس الحاجة إليها .

كان طبيعيا — إذن — أن يتشتت شمل أنصار النابغة وأشياعه ، وأن تذهب تهديداته مع الريح ، وأن يصحو كل يوم فيجد فريقا من حزبه قد انشق عليه ، وتركه إلى فزارة .

(١) الديوان ص ١٤٣

وفى ظننا أن النابغة وقد رأى ما آل إليه أتباعه راودته فكرة إخضاعهم بالقوة ، وإعادتهم قسرا إلى القبضة الغسانية وتلوح لنا هذه الفكرة التى سيطرت على النابغة من خلال قصيدته البائية التى وجهها إلى عمرو بن الحارث[1] .

ويبدأ النابغة قصيدته بما يشعرنا بثقل ما يعانيه من محنة تؤرق ليله ، وتزحم صدره فيرى الليل بطيء الكواكب لا يرجى له صبح ، ويجد الهموم تتوالى عليه من كل صوب :

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت : ليس بمنقض ... وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ثم يمضى فيفصح عن غايته قائلا :

حلفت يمينا غير ذى مثنوية ... ولا علم إلا حسن ظن بصاحب
لئن كان للقيرين قير بجلق ... وقير بصيداء الذى عند حارب
وللحارث الجفنى سيد قومه ... ليلتمسن بالجيش دار المحارب

إننى أقسم يمينا مؤكدة اعتمادا على حسن الظن بصاحبى ، لئن كان عمرو بن الحارث ابنا لآبائه العظام الذين ثووا فى جلق وصيداء ، والذين منهم الحارث الجفنى فإنه سيمضى بالجيش إلى دار المحارب .

أليس هذا حثا صريحا على الغزو ؟ ولنا أن نسأل — بعد — ما دار المحارب ؟ وماذا يعنى النابغة بها ؟ أليست هى دار من شق عصا الطاعة من حزبه ؟ لكأن النابغة يقول أيها الملك عليك أن تفعل ما كان يفعل آباؤك ، وعليك أن تمضى على سننهم فتقمع هذه الفئة الخارجة التى شذت عنك .

ويمضى النابغة فى هذه القصيدة العجيبة مزينا لصاحبه فكرة الغزو مؤكدا له

---

(١) الديوان ص ٤

النصر ، مبينا له أن أنصاره لن يخذلوه ، وأن جيشه لا يقهر ، وأن الطير وثقت فيه لما يقدمه لها فى كل غزاة من جثث عدوه فهى تصحبه وتغير مغاره :

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت ... كتائب من غسان غير أشائب
بنوعمه دنيًا وعمرو بن عامر ... أولئك قوم بأسهم غير كاذب
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائبُ طير تهتدى بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن مُغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب
تراهُنَّ خلف القوم خُزْراً عيونُها ... جلوسَ الشيوخ فى ثياب المرانب
جَوانِحَ قد أيقن أن قبيلَه ... إذا ما التقى الجمعان أوَّلُ غالب
لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنها ... إذا عُرِّضَ الخَطِّىُّ فوق الكتائب

ولكن هذا الحلم بالغزو يتبدد أمام تردد عمرو بن الحارث وضعفه ويبقى النابغة وحيدا فى وجه العاصفة .

* * *

ويضيق الخناق على النابغة ، وينفض عنه أتباعه يوما بعد يوم فلا يبقى منهم إلا بنو يربوع الذين هم عشيرة النابغة الأدنون وأهل بيته ، وتمتد الذراع الفزارية متمثلة فى بعض بنى مرة لتحكم قبضتها ، ولترغم النابغة ورهطه على الخضوع فيمحش يزيد بن سنان بن أبى حارثة المحاش ، وهم — كما قال الأصمعى — أربعة أحياء من فزارة ومرة تحالفوا على بنى يربوع قوم النابغة ، وإنما سموا بالمحاش لتحالفهم على النار ، وينتهى الأمر بإخراج النابغة ورهطه إلى حيث لجأ فى أحلافه من بنى عذرة .

وربما نرى النابغة فى بداية الأمر رابط الجأش مستهينا بالمحاش وكأنه كان على ثقة مازال بأحلافه ، ولذلك نراه يستخف بيزيد ومحاشه :

جمع محاشك يا يزيد فإننى ... أعددت يربوعا لكم وتميما

ويربوع هم رهط النابغة ، وتميم هم تميم عذره الذين لجأ إليهم .

ولكن الثابغة يستيئس يوما بعد يوم ، ويشعر بخذلان مواليه له فيتوجه بقصيدة إلى ذبيان فيها لوم وفيها شكوى ، فيها تذكير بالتوالى وأواصرها ، وفيها الأسى أن يكون هذا جزاؤه وقد كان يسعى — فى ظنه — لخيرهم يقول :

ألا أبلغا ذبيان عنى رسالة ... فقد أصبحت عن منهج الحق جائره
أجدكم لا ترجعون عن ظلامة ... سفيها ، ولن ترعوا لذى الود آصره
فلو شهدت سهم وأفناء مالك ... فتعذرنى من مرة المتناصره

ثم يبين ما يلقاه من بطون مرة الذين تحالفوا عليه ، ويمثل حاله وحالهم بالحية التى تصالحت مع من قتلت أخاه ألا يعرض لها بضر مقابل أن تدعه فى الوادى وتهبه هبة فى كل يوم ، فلما أثرى وكثر ماله تذكر أخاه وأراد الانتقام من الحية فرأت منه ذلك فنهشته :

وإنى لألقى من ذوى الضغن منهم ... وماأصبحت تشكو من الوجد ساهرة
كما لقيت ذاتُ الصفا من حليفها ... وما انفكت الأمثال فى الناس سائرة
فقالت له أدعوك للعقل وافيا ... ولا تعْشَيَنّى منك بالظلم بادره
فواثقها بالله حين تراضيا ... فكانت تديه المال غبا وظاهره
فلما توفى العقل إلا أقله ... وجارت به نفس عن الحق جائره
تذكر أنى يجعل الله جُنَّةً ... فيصبح ذا مال ويقتل إواتره
فلما رأى أن ثئر الله ماله ... وأثّل موجودا ، وسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعاول ابائره
فقام لها من فوق جُحْر مشيّد ... ليقتلها أو تخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لا تغمض ناظره
فقال : تعالى نجعل الله بيننا ... على مالنا أو تنجزى لى آخره
فقالت : يمين الله أفعل إننى ... رأيتُك مسحورا يمينك فاجره
أبى لى قبر لا يزال مقابلى ... وضربةُ فأس فوق رأسى فاقره[1]

(١) الديوان ص ١٥٥ ، ١٥٦

والأبيات على ما تتضح به من ألم فيها محاولة من النابغة لتبرير موقفه من قومه ، ولكن العجيب فيها أن يقرن النابغة نفسه بالحية ، هذه الحية التى ضمنت لصاحبها الوادى ، وتعهدت له بالهبة لقاء ما فعلته بأخيه ، فماذا كان النابغة فعل بقومه ؟ ترى أكان يحس فى قرارة نفسه أن ما أعطاه الغساسنة لهم لم يكن مقابلا لما أوقعوه بهم من قمع وتنكيل وقتل وسبى فى غزواتهم المتكررة ؟.

على أية حال فالقصيدة فيها نبرة يأس واستسلام ، ولا يبدأ الإنسان فى تبرير موقفه إلا حين يفكر فى مخرج من أمره ، وكأنه يفتح بهذا التبرير بابا للرجعة .

فإذا تصورنا ما أحاط بهذا الموقف اليائس المستسلم من تهديدات النعمان أبى قابوس التى نقدر تلاحقها فى هذه الفترة كان لنا أن نتوقع خضوع النابغة الوشيك ، والاستدارة بوجهه شطر الحيرة تائبا معتذرا بعد أن أوصدت أمامه كل الأبواب ، وخذله الولى والنصير .

٤ ــ الخضوع :

لا ندرى على وجه التحديد كيف انتهى أمر النابغة إلى الاعتذار إلى النعمان أبى قابوس ، ولكنا نقدر أن النابغة حين ضاقت به السبل لجأ إلى بعض الفزاريين مستجيرا بهم طالبا منهم التوسط لدى أبى قابوس ، ولا بد أنهما منظور بن زبان وسيار بن عمرو اللذين صحباه بعد إلى الحيرة ، وأمناه فى حضرة النعمان[1] ، ولا بد أنهما أيضا هما اللذان أشارا عليه بالاعتذار .

وقد اعتذر النابغة للنعمان فى خمس قصائد هى :

ــ يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأبد
ــ عفا ذو حسى من فرتنى فالفوارع فجنبا أريك ، فالتلاع الدوافع
ــ كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا وهمين هما مستكنا وظاهرا
ــ أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
ــ أمن ظلامة الدمن البوالى بمرفض الحبى إلى وعال

(١) انظر شعراء النصرانية ص ٦٤٩ ط الآباء اليسوعيين ببيروت .

وفى رأينا أن أولى هذه القصائد هى البائية لأنها تمس جوهر القضية مسا مباشرا ، ويحاول فيها النابغة أن يبرر صلته بالغساسنة وهذه الصلة هى الأمر الذى أغضب النعمان أساسا واعتبره خيانة . يقول فيها :

لئن كنت قد بُلِّغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذبُ
ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أُحَكِّمُ فى أموالهم وأُقرَّبُ
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

ويبدو النابغة فى هذه القصيدة معتدا بنفسه ، مجادلا عن موقفه ، مدافعا عن صلته بالغساسنة .

ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة التى تصورها النابغة وخيلت إليه أن مجرد تبرير موقفه من الغساسنة كاف للعفو عنه ، إن أمر النابغة لدى النعمان لم يكن أمر صنيعة للغساسنة فحسب وإنما هو فضلا عن ذلك أمر متطاول بالقول ، متهجم باللسان .

ويشعر النابغة أن محاولته الأولى لم تفلح ، ويشعر أن هناك من يملأ عليه قلب أبى قابوس من بنى قريع بن عوف بن تميم فيعيد الكرة مرة ثانية ، وفى هذه المرة لا يعتذر عن صلته بالغساسنة وإنما يحاول أن يتنصل من هذه الأقوال التى تناهت إلى سمع أبى قابوس :

لعمرى وما عمرى على بهين ... لقد نطقت بطْلاً علىّ الأقارعُ
أقارع عوْف لا أحاول غيرها ... وجوه قرود تبتغى من تجادع
أتاك امرؤ مستبطن لى بغضة ... له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كبلت فى ساعدى الجوامع

ويمضى النابغة فى قصيدته فيعجب كيف يقرب النعمان هؤلاء الأقارع ، ويصغى إليهم وهم الأجدر بالعقاب ، وكيف ينصب غضبه عليه وهو لم يذنب ولم يخن أمانة :

ـ لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع
ـ أتوعد عبدا لم يخنك أمانة وتترك عبدا ظالما وهو ضالع

ولعل فى هذين البيتين ما غمض على الشراح فهمه ، فتخيلوا فى قول النابغة « لم يخنك أمانة » إثباتاً لصلة سابقة له بالنعمان ، وأن النعمان حمله أمانة فخانها ، ولكن أليس الصحيح هو أن يكون المعنى ، إنه لم يسبق لك أن حملتنى أمانة لأخونها ؟ وبهذا التفسير نستطيع أن نفهم ما يرمى إليه النابغة ، إنه يريد أن يقول للنعمان إننى كنت واضحا فى موقفى منك ، نعم كنت على صلة بالغساسنة وما فى ذلك على من ذنب ولا جريرة وما فرطت بذلك فى أمانة كنت قد تحملتها ، أما هؤلاء الأقارع فهم الذين كانوا على صلة بك وقد أمنت لهم ، ولكنهم كانوا ضالعين فى خيانتك ، وكأن النابغة بذلك يريد أن يذكر النعمان بموقف هؤلاء الأقارع وقبيلتهم تميم حيث ظاهروا بنى عامر وتحالفوا معهم ضد أحلاف النعمان فى موقعتى النسار والجفار .

ويبدو أن هذا الأسلوب الجدل الذى انتهجه النابغة فى قصيدتيه السابقتين لم يرق للنعمان وهو الذى يريد النابغة صاغرا خانعا ولذلك ظل يطلبه ويترصد حركاته ويلاحقه فى تهديداته ، وهنا تأتى قصيدة النابغة الرائية التى تجنب فيها الجدل والمحاورة وبدأ أقرب إلى الخضوع يتعهده ألا يفعل ما يريب حتى ولو تطلب منه ذلك أن يكمم كلبه إن كان فى نباحه ما يسبب الريبه ؛ ويقسم أنه لن يطلب جوارا آخر غير جوار النعمان وكأنه ينفض بذلك يديه من الولاء للغساسنة :

رأيتك ترعانى بعين بصيرة وتبعث حراسا على وناظرا
وذلك من قول أتاك أقوله ومن دس أعدائى إليك المآبرا
فآليت لا آتيك إن جئت مجرما ولا أبتغى جارا سواك مجاورا
فأهلى فداء لامرىء إن أتيته تقبل معروفى وسد المفاقرا
سأكعم كلبى أن يريبك نبحه وإن كنت أرعى مسحلان فحامرا

وقد نجح النابغة فى هذه القصيدة أن يستل غضب النعمان ، وكان له بعد ذلك أن يسعى إلى الحيرة واثقا فى نجح مسعاه متوقعا صفح أميرها عنه فمضى مع صاحبيه الفزاريين حيث أمناه بين يدى النعمان وما كانا ليفعلا ذلك لولا أن رأيا من أمارات العفو ما شجعهما .

* * *

ينتهى النابغة أخيرا إلى النعمان ، وينظر النعمان إليه فيرى لحيته وقد خضبت بالحناء ، فيقول هى بدم كانت أحرى أن تخضب[1] وحينذاك ينشده النابغة قصيدته الدالية :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

والقصيدة — فى حسنا — أولى القصائد الخمس أن تنشد بين يدى النعمان ، ويبدؤها النابغة بمقدمة طللية يخرج منها بناقته التى يتغنث عندها بعض الشىء واصفا ، ثم يستطرد على عادة الشعراء مشبها لها بالثور الوحشى ثم ينتهى إلى مدح النعمان الذى جاء مختلطا بالاعتذار .

وقد لفتنا فى هذه القصيدة المقطع الذى يصف الثور الوحشى وبخاصة نهايته التى تصور انتصار الثور على كلاب الصياد ، وذلك إذ يقول :

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها طعنَ المبيطر إذ يشفى من العضد
كأنه خارجا من جنب صفحته سَفُّودُ شرب نَسُوه عند مفتأد
فظل يَعْجُمُ أعلى الروق منقبضا فى حالك اللون صدق غير ذى أود
لما رأى «واشق» إقعاصَ صاحبه ولا سبيل إلى عقل ولا قود
قالت له النفس : إنى لا أرى طمعا وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

لقد وقفنا طويلا عند ما صور به الشاعر « واشقا » وخيل إلينا أنه يصور نفسه ؟ ألم يكن موقفه كموقف واشق ؟ ألم ير مصارع بنى أسد الذين جاهروا

(١) شعراء النصرانية ص ٦٥ .

بالتمرد كما رأى واشق إقعاص صاحبه ؟ ألم ير فى النهاية — كما رأى واشق — أن مولاه لم يسلم ولم يصد . ولقد وثق لدينا هذا التماثل أن النابغة انتقل بعد حديث واشق مباشرة إلى النعمان :

فتلك تبلغنى النعمان إن له فضلا على الناس فى الأدنى وفى البعد

وقد بالغ النابغة فى هذه القصيدة مبالغة شديدة فى مدح النعمان فقرنه بسليمان عليه السلام الذى سخرت له الجن ، وفضله فى كرمه على الفرات حينما يكون فى أكمل أحواله وأتم فيضه ، وحاول فى اعتذاره أن يتجنب أسلوب الجدل الذى انتهجه فى قصائده الأولى فلجأ إلى ألوان من التوسل والتضاؤل كما نرى فى قوله :

أبيت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد
لا تقذفنى بركن لا كفاء له وإن تأثفك الأعداء بالرفد

لكل هذا رأينا أن هذه القصيدة كانت أولى القصائد بأن تنشد بين يدى النعمان .

لكنا قبل أن نترك هذه القصيدة نريد أن نقف وقفة قصيرة عند قول النابغة فيها متوجها إلى النعمان :

احكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام شراع وارد الثمد
يحفه جانبا نيق ، وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
فحسبوه فألفوه كما حسبت تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها وأسرعت حسبة فى ذلك العدد

وقد عبر الشارحون على هذه الأبيات واكتفوا بذكر قصة زرقاء اليمامة التى رأت الحمام فحسبت عدده فلما وقع فى الشباك كان عدده كما قالت به الزرقاء ، ومضى بعضهم خطوة فقال إن الشاعر يريد أن يقول للنعمان كن

حكيما فى أمرك مصيبا فى الرأى ولا تقبل ممن سعى إليك كفتاة الحى إذ أصابت ووضعت الأمر فى موضعه[1] ولا ندرى هل يقبل من النابغة فى مثل موقفه هذا النصح والتوجيه أو قل : هل يليق به ذلك ؟

أما النقاد فقد رأوا أن لا صلة بين هذا المقطع وموضوع القصيدة ، وراحوا يستغربون أن يهبط بالنابغة القول إلى هذه الدرجة إلى الحد الذى راح بعضهم يصم هذه الأبيات بأنها منحولة على النابغة[2] .

أما أن تكون هذه الأبيات منحوله فلا نظن ذلك لأن لها نظيرا فى شعر النابغة ، وقد مر بنا آنفا فى شعره نسج مشابه فى قصة الحية وصاحبها ، ويبدو أن الرجل كان شغوفا بصياغة الأمثال .

وأما أن القول هبط فيها فربما ، على أنه ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أن أسلوب الحكاية والقص فى الشعر دائما ما يهبط بالعبارة الشعرية لأنه يبعد بها عن التكثيف المطلوب لها .

وأما أن تكون هذه الأبيات لا صلة لها بموضوع القصيدة فهذا ما نتوقف عنده لأنه من غير المعقول أن يقحم الشاعر على موضوع قصيدته مالا صلة له به .

وحتى نتبين مرمى الشاعر علينا أن نتبع الصورة من البداية إن فتاة الحى نظرت فرأت هذا الحمام القاصد إلى الماء يطير محصورا بين حافتى الجبل ، فتمنت أن يكون الحمام لها ونصفه ليكمل لها مائة حمامة ، فلما وقع الحمام وانتهى إليها كان كما قالت وتم لها به مع حمامتها مائة حمامة .

وفى ظننا أن الصورة لا توحى بنفاذ النظرة وحدتها فحسب ولكنها توحى أيضا بصدق التوقع أن ينتهى الحمام إلى من تمنت أن يكون لها الحمام .

---

(١) الديوان هامش ص ٢٣ .

(٢) ينظر . كتاب النابغة الذبيانى للدكتور محمد زكى العشماوى ص ٧٨

ألا يحق لنا أن نقول إن النابغة يريد أن يقول للنعمان أصبر وسيتهى كل الحمام إليك وسينضم إلى حمامتك ليتم لك مائة حمامة ، ولا نرى أن المائة هنا يقصد بها عدد حقيقي ولكنها فى ظننا يقصد بها التمام .

أنكون قد جاوزنا مرمى الشاعر إذا قلنا إنما الحمام هنا رمز للقبائل التى توالى الغساسنة ، ولعله لا يخفى علينا بعد ذلك سر إبراز الحمام محصورا بين جانبى الجبل .

لكأن الشاعر إذن أراد أن يمنى النعمان بخضوع كل هذه القبائل الموالية للغساسنه له ، ولكن عليه أن يصبر وعليه أن يراقبها حتى تخرج من جانبى الضيق على حد قوله .

وإذ قد وضح لنا مرمى الشاعر على نحو من الاشياء فعلينا أن نقدر له لم اختار هذا النهج الرامز ، وغير خفى أن التلميح هنا له مبرراته ، فربما لم يرد الشاعر الإفصاح حتى لا ينبه الغساسنة إلى ما يتم التدبير له ، وربما كان الشاعر مازال متحسبا للغساسنة وقد رأينا من قبل مدى فرقه وخوفه منهم .

* * *

تبقى بعد من قصائد الاعتذار قصيدة النابغة اللامية :

أمن ظلامة الدمن البوالى بمرفض الحبى إلى وعال

وهى قصيدة خطيرة الدلالة ، لأنها تثبت أن النعمان حتى بعد عفوه عن النابغة ظل يستريب به ، وظل يترصد حركاته وظلت هناك أخبار تتناهى إلى سمع النعمان أن النابغة يحن إلى سيرته الأولى مع الغساسنة .

والذى يرجح لدينا ذلك أن نهج الاعتذار فيها مخالف لما سلكه الشاعر فى اعتذاراته السابقة ، واقرأ معى قول النابغة :

ومن يغرف من النعمان سجْلاً فليس كمن يُثَيِّهُ فى الضلال
فإن كنتَ امرءا قد سُؤْتَ ظنا بعبدك والخطوب إلى تبال

فأرسل فى بنى ذبيان فاسأل ولا تعجل إلىّ عن السؤال
فلا عمر الذى أثنى عليه وما رفع الحجيج إلى إلال
لما أغفلت شكرك فانتصحنى وكيف ومن عطائك جل مالى
ولو كفى اليمين بغتك خونا لأفردت اليمين من الشمال

وهذا فى رأينا نغم مخالف .

وأول ما نلحظه خلو الأبيات من الإشارة إلى وعيد النعمان الذى كان يؤرق الشاعر فى قصائده السابقة فتستلك منه مسامعه ، ويبيت كأنه ساورته ضئيلة من الرقش ، وكأنه به القار مطلى إلى الناس أجرب .

وثانى ما نلحظه أن النابغة يصور الأمر كله فى هذه القصيدة على أنه « سوء ظن » « فإذا كنت امرأ قد سوّت ظنا » وسوء الظن هذا درجة واهنة من الخلاف لا تتماثل مع ما ورد فى قصائده السابقة من ألفاظ الخيانة ، والجرم .

وثالث ما نلحظه أن النابغة يقول للنعمان : « فأرسل فى بنى ذبيان فاسأل » ويقصد طبعا ببنى ذبيان فزارة التى أمنته بين يدى النعمان وتكفلت بإخلاصه ، ومثل هذا القول لم يكن ليقال قبل وإنما يقال حينما يكون هناك كافل يرجع إليه فى أمر النابغة .

ورابع ما نلحظه قول النابغة :

لما أغفلت شكرك فانتصحنى وكيف ومن عطائك جل مالى

فإذا كانت صلة النابغة بالنعمان قد بدأت بالاعتذار فهل نتخيل أن النعمان كان يعطى النابغة قبل صلته به ؟ ثم انظر إلى قول النابغة « لما أغفلت شكرك » وما يوحى به من التزام التزم به أو ألزم ، ثم انظر أيضا إلى قوله « فانتصحنى » وما يوحى به من تحير الذى لا يعرف كيف يرضى النعمان .

لكل ذلك نرى أن هذه القصيدة اعتذار عن جريرة جديدة تمثلت كما أسلفنا فى ما تناهى إلى سمع النعمان من عودة النابغة إلى سيرته الأولى .

العلاقة — إذن — بين النعمان والنابغة لم تصف ، ولم يقم بين الرجلين ود خالص ، وإنما كان هناك سوء الظن والريبة .

وإذ وصلنا إلى هذه النقطة فلنا أن ندرك سر خلو ديوان النابغة من المدح الخالص للنعمان ، ولنا أن ندرك أيضا لم وقفت العلاقة بين الرجلين عند حد الاعتذار فلم تتقدم .

سر ذلك فى نظرنا هو سوء الظن الذى طبع هذه العلاقة ، فلم يكن النعمان مرتاحا إلى النابغة ، ولم يكن النابغة مخلصا للنعمان بقلبه وإن أخلصت له جوارحه .

صحيح أن النابغة أظهر فى بعض قصائده تشيعا للنعمان أبى قابوس وحرصا عليه كما نرى فى توبيخه ليزيد بن الصعق الكلابى حينما أغار على بعض نعم النعمان :

فإن يقدر عليك أبو قبيس ... تمط بك المعيشة فى هوان
وتخضب لحية غدرت وخانت ... بأحمر من نجيع الجوف آنى
وكنت أمينه لو لم تخنه ... ولكن لا أمانة لليمانى[1]

ولكنا نعتقد أن هذا القول كان سدا للذرائع ، وإظهاراً للإخلاص لا إخلاصا ، وآية ذلك ما ردّ به يزيد بن الصعق على النابغة فبين له أنه على فعله أحسن عند النعمان مكانا ، وأمضى لسانا وسنانا ، وأن النابغة مهما تلون وتبدل فهو شآمى النزعة جبل على الغدر :

وإن يقدر علىّ أبو قبيس ... تجدنى عنده حسن المكان
تجدنى كنت خيرا منك غيبا ... وأمضى باللسان وبالسنان
وأى الناس أغدر من شآم ... له صُرَدَان منطلق اللسان[1]

(١) الديوان ص ١١٣ .

وصحيح أيضا أننا نقع فى شعر النابغة على أبيات يأسى فيها لما بلغه من مرض النعمان وهى :

ألم أقسم عليك لتخبرنى ... أنحمول على النعش الهمام ؟
فإنى لا ألام على دخول ... ولكن ما وراءك يا عصام ؟
فإن يهلك أبو قابوس يهلك ... ربيع الناس والشهر الحرام
ونمسك بعده بذناب عيش ... أجب الظهر ليس له سنام

ولكن هذه الأبيات — على شكنا فى أصالتها للنابغة — لا تقال فى مثل ما قيلت فيه ، ألست معى أن قول النابغة « أنحمول على النعش الهمام » فيه من التشفى أكثر مما فيه من الأسى ؟ ألا تحس أن النابغة يريد أن يستوثق من عجز النعمان لا أن يطمئن عليه ؟ ثم ألا ترى النابغة قد بادر فتوقع الهلاك ولم يتوقع الشفاء ؟ أنظم إذن النابغة هذه الأبيات — إن كان نظمها — واعيا أم أن مشاعره الكامنه سبقت على لسانه ، وغشت على وعيه ، وقارن هذه الأبيات — بعد — بمثيلاتها مما نظمه النابغة فى النعمان بن الحارث :

إن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ... ويأت معدا ملكها وربيعها
ويرجع إلى غسان ملك وسؤدد ... وتلك المنى لو أننا نستطيعها

إن يرجع .. لا إن يهلك .

ولك أن تحكم بعد ذلك أى الحديثين أصدق نبرة .

بل إننا نقول لك : ارجع البصر فيما جاء مختلطا باعتذار النابغة للنعمان من مديح وقارنه بمديح الغساسنة لتتبين معنا أن النابغة أذعن للنعمان لسانا لا قلبا ، ولتدرك لم وقفت العلاقة عند حد الاعتذار إذ كان كلا الرجلين يدرك موقعه من صاحبه .

تعقيـــب

يبقى بعد ذلك سؤال واحد هو : كيف حط الشعر من قدر النابغة ومن شرفه ؟

وفى حدود علمنا لم نسمع أن الشعر حط من قدر صاحبه إلا فى الحديث عن امرىء القيس والنابغة ، وهو قول يتنافى مع ما نقرؤه من أن القبيلة فى العصر الجاهلى تفرح إذا نبه فيها فارس أو شاعر لأن الفارس كان يدافع عنها بسيفه ، والشاعر يدافع عنها بلسانه .

إذن فالشعر كان يرفع أقدار الرجال ولا يحط منها ، وآية ذلك ما قرأناه من خبر الحارث بن حلزة حينما وقف ينشد قصيدته بين يدى أمير الحيرة ، وكان الحارث أبرص ولذلك احتمى منه الأمير بستر ، ولكنه لما سمع ما سمع من شعره رفع الستر وأدناه من مجلسه[1] .

أرأيت كيف رفع الشعر من قدر ابن حلزة فجالس النعمان وهو أبرص فكيف يضع إذن من قدر النابغة ؟ قد نفهم أن الذى حط من قدر امرىء القيس ليس الشعر فى حد ذاته ولكن ما اشتهر به فيه من الفواحش ، ولكن يبقى أمر النابغة .

ويقال : إن ماحط من قدر النابغة ليس الشعر وإنما هو ما أراقه من ماء وجهه بالشعر فى الاعتذار والمديح .

ولعل هذا القول يقترب بنا من جوهر الأمر وحقيقته لأنه يشير إلى أن هناك انحرافا ما فى شعر النابغة . ولكنا لكى نتبين هذا الانحراف لابد أن نعود إلى مفهوم الشعر ومهمة الشاعر لدى العرب فى الجاهلية .

إن مفهوم الشعر أنه سجل للمآثر والمفاخر ، ومهمة الشاعر هى الحفاظ على هذه المآثر وتلك المفاخر ، وبعبارة أخرى كان على الشاعر أن يلتزم فى

(١) البرصان والعرجان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ص ٢٤ .

شعره بما التزمت به قبيلته ، وأن يكون لسانه هو لسانها وولاؤه هو ولاءها ، فهل كان النابغة كذلك ؟ وهل كان ولاؤه هو ولاء قبيلته ، ونعتقد الآن قد وصلنا إلى صميم القول .

لقد حظ الشعر من قدر النابغة لدى قبيلته ذبيان لأنها رأت أنه لا ينطق بلسانها بقدر ما ينطق بلسان الغساسنة ، وأنه في كثير من الأحيان كان عليها ولم يكن معها . أما خارج ذبيان فما نظن إلا أن شعر النابغة رفعه ، وأعلى من قدره ، وأجلسه في سوق عكاظ في قبة من أدم ليحكم بين الشعراء ، ويعطيهم خلاصة تجربته .

ثبت بالمراجع والمصادر

١ ــ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ط بيروت .

٢ ــ أيام العرب فى الجاهلية ، محمد أحمد جاد المولى ، البجاوى ، أبو الفضل ابراهيم ، ط دار الفكر .

٣ ــ البرصان والعرجان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق محمد مرسى ، ط دار الاعتصام ١٩٧٢ .

٤ ــ تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ، ط دار المعارف ١٩٧٤ .

٥ ــ جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم الأندلسى ، ط دار المعارف ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١ م .

٦ ــ خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادى ، ط بولاق ١٢٩٩ هـ .

٧ ــ ديوان بشر بن أبى خازم ، تحقيق د . عزة حسن ، ط دمشق ١٩٦٠ .

٨ ــ ديوان عنترة بن شداد العبسى ، تحقيق محمد سعيد مولدى ، نشر المكتب الاسلامى ١٩٧٠ .

٩ ــ ديوان النابغة الذبيانى ، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ، ط دار المعارف .

١٠ــ شعراء النصرانية ، جمع الأب لويس شيخو ، ط الآباء اليسوعيين . بيروت .

١١ــ شعر بشر بن أبى خازم ، رؤية تاريخية وفنية ، د . فوزى أحمد أمين ، ط منشأة المعارف . الاسكندرية .

١٢ــ عنترة بن شداد العبسى ، د . فوزى محمد أمين ، ط دار المريخ ١٩٨٥ م .

١٣ــ عيار الشعر ، لابن طباطبا العلوى ، تحقيق د . محمد زغلول سلام ، ط منشأة المعارف ، الاسكندرية .

١٤ــ الكامل فى التاريخ ، لعز الدين بن الأثير ، ط دار صادر بيروت .

١٥ــ الكامل فى اللغة والأدب ، للمبرد ، ط الحلبى ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧ م .
١٦ــ مختار الشعر الجاهلى ، مصطفى السقا ، ط . القاهرة ١٩٤٨ م .
١٧ــ المفضليات ، للمفضل الضبى ، تحقيق شاكر وهارون ، ط دار المعارف .
١٨ــ النابغة الذبيانى ، د . محمد زكى العشماوى ، ط دار المعارف .
١٩ــ النقائض (نقائض جرير والفرزدق) لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، ط ليدن ١٩٠٥ م .